"مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو" للدكتور مهدي المخزومي-عرض وتوجيه-

أ/د.عبد القادر سلاّمي/جامعة تلمسان-الجزائر
skaderaminaanes@gmail.com

ملخص:

[تسعى الدراسة الموالية إلى استعراض أنموذج من الكتب التي ألفت حول "مدرسة الكوفة" منهجا وأسساً وخصائص، يتعلق الأمر بكتاب" مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو" لمهدي المخزومي؛ بما يكفل عرض ما جاء فيه وتوجيه بعض ما اعتراه من شطط فكري أو انتصار مذهبي غير منصف.]

تمهيد:

كان نشوء مدرسة الكوفة وفق منهج مغاير لما كانت عليه مدرسة البصرة. وكان هذا الاختلاف المنهجي نابعاً من طبيعة اختلاف الظروف المحيطة بكلا المدينتين: البصرة والكوفة.فلئن اتّخذت مدرسة البصرة من مبدأ الإيغال في البداوة والبُعد عن التأثّر بالعنصر الأجنبي شرطاً هامّا من شروط فصاحة العربي،كان من المحتّم أن يكون منهج الكوفة قائماً على الرواية والنّقل والاهتمام بكلّ ما ينطق به أيّ عربيّ مهما كان شارداً ومهما اختلف عن غيره في أيّ من خصيصاته اللغوية عمّا يقول به الجمهور، وهو جمع كما ترى بين الأداء والاستعمال في كلام العرب، الأمر الذي حدا ببعض الدّارسين المحدثين إلى القول بضرورة اتخاذ المدرسة الكوفية مرتكزا لتقعيد القواعد .

وفيما يلي عرض لأهم قضايا الكتاب وفق رؤية المؤلف، مع توجيهات نرى لها ضرورة.

اولاً- الكتاب، أهدافه، بناؤه:

يقدم هذا الكتاب دراسة تاريخية للنحو العربي، تتخذ من نشأته الأولى، التي استوت على يد الخليل، أساسا لتشكل مدرستين تتمم إحداهما الأخرى، أولاهما مدرسة البصرة، التي أحصى المؤلف بعلمائها الذين جاءوا بعد الخليل ممن راحوا" يدرسون النحو في غير منهجه، ويدعّمون أصوله بأصول المنطق، وقواعد العقل، فذهبوا ببريقه، وعصفوا بروحه، وتناولوه على أنه صناعة لفظية، تقوم على البراعة في تصريف الألفاظ، واختراع القوالب، حتى عاث فيه الجمود، وأصيب بالجدب المخيف."[1]

والثانية، مدرسة الكوفة، وقد لمح "الدكتور المخزومي"في آراء رجالها،"منافذ يطلّ منها الدّارس على فقه العربية"، وحسّ بطبيعتها[2]"، فأدرك أنّ منهجها يصلُح أن يكوم قاعدة لبناء جديد".[3]وحفزه ذلك على رسم حدود هذه المدرسة وإنصاف رجالها، ليخلص إلى التبشير بإرساء النحو على دعائم من أصولها.

مهّد المؤلّف لأهدافه الرئيسة بثلاث وستّين صفحة من مجموع أربعمائة وإحدى وثلاثين بسط فيها الحديث عن مدينة الكوفة، مبيّناً عناية علمائها بتدبر القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والفقه شارحاً العوامل التي نهضت بالدراسة اللغوية ، منتهياً إلى تناول المنهج البصري بالتحليل والنّقد.

أشرع المؤلّف بعد ذلك ثلاثة أبواب، خصّص الأوّل منها لمدرسة الكوفة : نشأتها ورجالها، والثاني لدراستها اللغوية والنّحوية، والثالث لمصادرها ومنهجها. ثمّ اختتم البحث بدعوة إلى إصلاح النّحو وفق أعمال الكوفيين المنسجمة مع معطيات الدرس الحديث.

ثانياً-مدرسة الكوفة:

بدأ الدراسة النحوية في الكوفة بعلي بن حمزة الكسائي (ت 189هـ)، أحد القراء السبعة، وقد درس النحو على الخليل بن أحمد وتأثر بالقراء في اعتدادهم بالنقل، فنهج بذلك منهجا جديدا تولاه القراء من بعده بالرعاية.

عني الكاتب بغريب اللغة، وبالشواذ من كلام العرب الذين يثق بفصاحتهم، ولو كانوا من عرب الحطمية[4]، وقاس على المثال الواحد، وإن لم يرد في كلام العرب غيره، كمذهبه في جواز إضافة "حيث" إلى المفرد قياسا، وكان يقول:[5]

إنما النحو قياس يتبّع وبه في كل علم ينتفع

وقد أخرج الحديث النبوي عن نطاق المصادر التي يهتم بها، وهذا - فيما يظن المؤلف" – أثر من آثار المدرسة البصرية، وهو غريب يدعو إلى التأمل"[6].

من أبرز تلاميذه: الفراء يحيى بن زياد (ت 207هـ) وكان قد اتصل بيونس بن حبيب، الذي جلس للتدريس في مجلس الخليل بعد وفاته، ودرس على أبي جعفر الرواسي، كما فعل الكسائي من قبل، ثم ذهب إلى بغداد غاية الطالبين إذ ذاك، حيث لزم الكسائي وتتلمذ عليه بعد مناظرة بينهما، في زمن كان علم الكلام فيه قد خطا خطوات واسعة، حتى أخذ يطغى على المناهج الدراسية، فلا يبعد أن يكون قد وقف على شيء من علم الكلام، واتصل بأصحابه، بل قيل إنه كان متكلما، يميل إلى الاعتزال، "فالراصد أقواله يحس بجلاء ما في آرائه النحوية، وتفسيراته لوجوه الإعراب، من أثر التفكير الفلسفي..."[7].

يعد كتابه "معاني القرآن" المصدر الذي حملت عنه كتب النحو آراءه، والمنبع الذي استقى منه تلاميذه، واتباع المذهب الكوفي، وقد تناهت منه نسخة إلى أبي العباس ثعلب، كان يمليها على أصحابه.

من آرائه: "النصب على الخلاف" واجتماع فعلين على فاعل واحد في باب التنازع، وجواز عمل "ليست" النصب في الاسم الواقع بعدها، وأن العامل في رفع المضارع هو تجرده عن العوامل.

واختتمت المدرسة بأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب (ت 291 هـ)، الذي أكب على دراسة كتب الفراء، وحفظ مسائله، فكان مرجع أهل الكوفة في رواية أقوال الكسائي والفراء.

وشهدت الفترة التي عاش فيها شدة المنافسة بين المدرستين، وقد جمعته بالمبرد أكثر من مناظرة كانت الغلبة فيها لخصمه البصري، لأن ثعلباً لم يكن معنيا بالقياس، أو مستخرجا للعلل، فإذا سئل عن مسألة راح يبحث عنها فيما حفظ.

أما مجالس ثعلب، فهي مجالسات أملاها على أصحابه، تحتوي على قطع من النحو، واللغة والأخبار، ومعاني القرآن، والشعر، مما سمع.

هذا، وللكوفيين مصطلحات خالفوا فيها البصريين، منها: الجحد، والترجمة، والتبيين، والفعل الدائم، والأدوات، والخفض، والمجهول، والعماد، والنعت، والنسق، وحروف الصلة أو الحشو.

ولهم كذلك إضافات زادوها في النحو العربي، من بينها:

إضافتهم إلى الأسماء الموصولة اسما جديدا هو "ذا" مفردة، أو مركبة مع "ما" مستندين إلى قول الشاعر:

عدس ما لعبّاد عليك إمارة أمنت وهذا تحملين طليق

وإضافتهم إلى أدوات الجزم أداة جديدة هي "مهما" وإلى أدوات النصب "كما"، محتجين بقول الراجز:

لا تظلموا الناس كما لا تظلموا

وإضافتهم إلى كان وأخواتها: "هذا وهذه" في الاحتجاج إلى مرفوع ومنصوب إذا قصد بها التقريب، في مثل: "كيف أخاف الظلم وهذا الخليفة قادما" .

وإضافتهم إلى وجهي البناء في "حيث" وجها ثالثا، وهو البناء على الكسر، فقد حكى الكسائي عن بعض العرب قوله: "من حيثِ يعلمون".

ثالثاً-مصادر المدرسة ومنهجها:

للكوفيين مصادرهم التي أقاموا عليها أصول دراستهم، وجملة هذه المصادر:

1-**النحو البصري**: كما تلقوه عن شيوخ البصرة، وكما جاء به كتاب سيبويه، فالكسائي درس الكتاب على الأخفش، والفراء وقف عليه واحتفظ لنفسه بنسخة منه، إلا أن الكوفيين كانوا –كثيرا ما- يقفون من الكتاب موقف الناقد، ويخفون تأثرهم به بدافع من العصبية.

2-**لغات الأعراب:**

وسّع الكوفيون "الأطلس اللغوي" الذي رسمه البصريون، فقبلوا لهجات عرب الأرياف الذين وثقوا بهم، كأعراب سواد الكوفة من تميم وأسد، وأعراب سواد بغداد من الحطمية، الذين غلط البصريون لغتهم، واتهموا الكسائي بأنه أفسد النحو، إذ وثق بهم وأخذ عنهم.

3-الشعر العربي:

عني الكوفيون عناية فائقة بالشواهد والنوادر، وكان من أصحابهم حفظة لهذه الشواهد، كحماد الراوية، وعلي بن المبارك الأحمد، وأبي بكر بن

الأنباري، وهذا الاهتمام بالشواهد الكثيرة يتسق مع عنايتهم بالتتبع اللغوي، ويتفق مع ما يتطلبه منهج اللغة.

4-القراءات:

وقف البصريون من القراءات موقفهم من سائر النصوص اللغوية، فأخضعوها لأصولهم وأقيستهم، فما وافق منها أصولهم، ولو بالتأويل، قبلوه وما أباها رفضوا الاحتجاج به، ووصفوه بالشذوذ. كما رفضوا الاحتجاج بكثير من الروايات اللغوية، وعدوها شاذة تحفظ ولا يقاس عليها.

أما الكوفيون فقد احتجوا بها، وعقدوا على ما جاء فيها كثيرا من أصولهم وأحكامهم، فقبلوا قراءة ابن عامر قوله تعالى: (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادَهم شركائهم)[8]، وجوزوا الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف، وقبلوا قراءة حمزة قوله تعالى: "واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام"، وأجازوا العطف على الضمير المخفوض دون إعادة الخافض، وقبلوا قراءة الحسن البصري: "الحمد لله"، وقراءة ابن أبي عبلة: "الحمد لله".

ولا بد من التأكيد على أن الدرس الحديث يدفعنا إلى الإقرار بصحة النظر الكوفي، وصدق نهجه، لأن القراءات هي المصدر الصحيح، الذي حفظ لنا اللغة العربية ممثلة فيها اللهجات.

وقد فات الكوفيين والبصرين – على السواء- أن يعنوا بالأحاديث في الاحتجاج وموقفهم هذا ضعيف، والصواب ما ذهب إليه ابن مالك ومن تابعه، لأنها من المصادر اللغوية التي كان ينبغي للنحاة أن يتقيدوا بها، ويفيدوا منها.

يتضح –مما تقدم- أن المنهج الكوفي يقوم على النقل والسماح، ويعتد بالقياس، ولم تكن الأدلة القياسية لتحتل فيه المقام الأول.

وعلى هذا فنحاة الكوفة "كانوا يلمحون الطبيعة اللغوية، ويمتازون بفهم العربية فهما لا يقوم على افتراضات وتكهنات، أو استهداء بقوانين العقل، وأصول المنطق ولكنه يقوم على تذوق للغة، وحسن تطبيقها"[9].

لكنهم –مع ذلك- "لم يلتفتوا إلى ما بين العربية وأخواتها الساميات من وشائج وصلات، فهم يقيمون دراستهم على أساس من الموازنة بين هذه وتلك، لتكون النتائج واقعية..." [10].

وفي خاتمة البحث: "نرجو أن يستعيد الدرس الكوفي نشاطه، ويسترجع قوته وحيويته، بعد أن يلائم بين نفسه، ومقتضيات عصره، وأن يستفيد من

تقدم العلوم، وأدوات الدرس الحديث، فإن ما تركه الكوفيون من نقول، وما حفظوه لنا من لغات، مضافا إلى ما تركه البصريون، جدير أن يكون مادة الدرس النحوي الحديث"[11].

رابعاً-نظرات نقدية:

بعد هذا العرض- الذي قدمنا- يتضح جهد المؤلف، ومنهجه التاريخي، في بحث تجلو قيمته نزعة استقرائية، توخت جمع الآراء المبثوثة في العديد من المصادر قديمها ومحدثها، واجتهدت في الاعتماد على الأخبار التي حفلت بها كتب التراجم والطبقات، بهدف الخلوص إلى أن النحو العربي شهد –على مدى قرن ونصف- مدرسة كوفية كان لها من نشاط شيوخها، وتلاميذهم منهج متميز.

واتخذ المؤلف من الموازنة بين نحاة البصرة والكوفة، أساسا لتحديد الخصائص الكوفية، وارتكز عليه –بإسراف أحيانا- في تحليل قضايا البحث، ولم يغفل الموازنة بين العربية والعبرية حينا و المقارنة بين العربية والانكليزية حينا آخر، لمعالجة مسائل اشتقاقية، وتفسير ظواهر إعرابية.

على أن النظر النقدي يبدي جملة من الملاحظات، نورد –فيما يلي- أكثرها أهمية:

1. يتسرع الباحث –أحيانا- في اتخاذ الأحكام، فيأتي بعضها مطبوعا بالتعميم، يشهد على ذلك تقريره أن البصريين – بعد الخليل- درسوا النحو في غير منهجه، فذهبوا ببريقه، وعصفوا بروحه، حتى مات فيه الجمود، وقد أطلق هذا الحكم – على ما فيه من غلوّ - في مواضع كثيرة من كتابه يكاد حصرها يستعصي على الدارس.

2. وقد يدفعه التعميم إلى التناقض، ومثاله: ما ذهب إليه من أن الراصد لأقوال الفراء" يحس بجلاء ما في آرائه النحوية، وتفسيره لوجود الإعراب، من أثر التفكير الفلسفي". [12] وقوله:"وسرت عدوى التأثر بالمنهج الكلامي إلى الدارسين من أهل اكوفة..."[13]ثم نقضه لذلك بقوله: "والحق أني لا أكاد أرى أثرا للفلسفة الكلامية في نحو الكسائي والفراء وثعلب وتلاميذهم، ولا أحس بأنهم كانوا يعتدون بالتعليل المنطقي اعتداد البصريين به". [14]

3. إن فكرة"المدرسة النحوية" التي استبدت بالباحث، صرفته عن تأمل الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين، وداخل كل اتجاه على حدة، تأملا يسوّغ هذا النشاط اللغوي، ولا يقيمه حدا فاصلا بين مذاهب

ومدارس، ونميل إلى الاعتقاد بأن الخلاف بين الفريقين لم يكن مبنيا على منهج واضح بقدر ما كان مظهرا من مظاهر التعلق بالحظوة لدى الحكام والتمسك بأسباب الرزق، والتعصب لأمور شتى، ليس العلم – فيما نرجّح - واحدا منها.

4. إن الأسس التي بنى عليها الباحث اتجاه النحو الكوفي لا تشير إلى منهج مستقل، فمصادر البصريين والكوفيين تكاد تنحصر في الشعر ولغات الأعراب والقرآن الكريم. وكلا الفريقين أخرج الحديث النبوي من دائرة درسه اللغوي، وكلاهما لم يقم الحدود بين اللهجات فيدرس لهجة بعينها وكلاهما افتقر إلى الحس المقارن، فلم يعقد الصلات بين العربية وأخواتها الساميات، على نحو ما أراد الدكتور المخزومي.

أما الفارق –الذي لا جدال فيه- فيكمن في ظاهرة الاتساع: الاتساع في الرواية والنقل، والاتساع في القياس إلى حد التعميم، لاستنباط القاعدة من المثال الواحد، وهذا الفارق يدفعنا إلى "أن نعد نحاة الكوفة يمثلون تيارا خاصا لا يؤثر في المنهج النحوي العام- الذي أرسى دعائمه الخليل وسيبويه- ولكن يتوسع في فروع هذا المنهج"[15].

5. إن دعوى تمثيل الكوفة للدرس النحوي، القائم على "تذوق للغة وحسن تطبيقها" كما اعتقد المؤلف بقيت بعد نهاية البحث مفتقرة إلى الأدلة العملية، بل قد نرى ما يخالها إذا التمسنا هاتين المسألتين:

المسألة الأولى: أن البصريين استطاعوا، بعزوفهم عن الاحتجاج ببعض اللهجات، أن يرسموا للناس ما يحفظ عليهم لغتهم من اللبس والتشعب، لأن محاولة "بناء قواعد اللغة العربية من كل ما روي عن القبائل، يؤدي حتما إلى التناقض، ويبعد باللغة عن الانسجام والاطراد في الخصائص".[16]

والمسألة الثانية: أن الأطلس اللغوي الذي يضم إليه "الضعيف والشاذ واللحن والخطأ مما يقع فيه أعراب السواد، والشعر المصنوع مما دسه حماد وخلف الكوفيان[17]، لا ينسجم مع الدرس الحديث، الذي ينبغي له – في رأينا- أن يهتدي إلى منهج يحفز على التمسك بلغتنا "الموحّدة".

وأخيرا نرى أن الكتاب، وهو يتصدى لإنصاف المذهب الكوفي، وسط ركام الآراء والميول الدائرة في الفلك البصري، يحسن صنعا بكشفه عن مؤثرات فكرية تمخضت عن زيادات أضافها الكوفيون، ومصطلحات ابتكروها ، وآثار خلفوها، تتمثل بحقّ في كتاب "معاني القرآن" للفرّاء. لكن الغلوّ في التحامل

على البصريين. جعل سبيله إلى الهدف محفوفة بالتعصب الفكري، البعيد كل البعد عن مرمى البحث العلمي.

إحالات:

1 مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة النحو ص1.(مقدمة الكتاب). شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلي وأولاده بمصر،ط2 القاهرة ، مصر، 1958م.

2 المرجع نفسه،ص2.

3 المرجع نفسه،ص3.

4الحطمية التي تحطم السيوف، أي تكسرها.وقيل: هي تبوبة إلى بطن من عبد القيس يقال لهم حطمة بن محارب،كانوا يعملون الدروع. ينظر: الفيروزىبادي،: القاموس المحيط ،99/4،مادة(الحطم).

5مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة النحو،ص11.

6 المرجع نفسه،ص117.

7 المرجع نفسه ،ص137.

8 الآية 137من سورة الأنعام.

9 المرجع نفسه،ص379.

10 المرجع نفسه،394.

11 المرجع نفسه،ص424.

12المرجع نفسه،ص137.

13 المرجع نفسه،ص261.

14المرجع نفسه،ص273.

15 مصطفى جطل :نظام الجملة عند اللغويين العرب في القرنين الثاني والثالث للهجرة،منشورات كلية الاداب بجامعة حلب،مديرية الكتب والمطبوعات الجامعيةن،سورية ،1981-1982م: 520/2.

16إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، ط3،مكتبة أنجلو المصرية، المطبعة الفنية الحديثة القاهرة،1965م.ص48

17 سعيد الأفغاني :في أصول النحو ، ط3،دمشق 1383هـ-1963م.ص 809.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم
- الأفغاني، سعيد :في أصول النحو ،ط3،دمشق 1383هـ-1963م.
- أنيس، إبراهيم: في اللهجات العربية،ط3،مكتبة أنجلو المصرية،المطبعة الفنية الحديثةنالقاهرة،1965م.
- جطل، مصطفى:نظام الجملة،،عند اللغويين العرب في القرنين الثاني والثالث للهجرة،منشورات كلية الاداب بجامعة حلب،مديرية الكتب والمطبوعات الجامعيةن،سورية ،1981-1982م
-الفيروزىبادي، مجد الدين يعقوب: القاموس المحيط،دار الجيل ، بيروت.
– المخزومي، مهدي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة النحو،شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر،ط2 القاهرة ، مصر، 1958م.